النهضة الشرقية الحديثة

اظهر مظاهرها وابقى آثارها

١ — رأي امين الريحاني

ان اظهر هذه المظاهر ما يراهُ كل الناس ، كالملابس الافرنجية ، والاسواق المرصفة ، والارتال الكهربائية ، والسيارات ، والابنية التي لا شرقية تُعرف ولا غربية — انها كلها من مظاهر التطور ، وقد تعد من مظاهر النهضة . وعما لا مرية فيهِ اننا غيرنا عاداتنا في الملابس والاسفار ، وصرنا نفضل الجادة المرصفة على الرمل والغبار ، والكهرباء على الحمار . ولا فرق مختارين كنا في ذلك او مرغمين

هو التيار الاوربي والناس امامهُ كالرمال في طريق السيل . فاننا وان لذت لنا قراءة الاخبار واستماعها عن اجدادنا منذ خمسين سنة فلا يلذ لنا ، ولا نستطيع الاَّ بوثبة نصفها عقل ونصفها جنون ، ان نعود الى ما كانوا يلبسون ويتطون ، و يبنون وينرشون . على اني اذا تصورت الشيخ ناصيف اليازجي مثلاً والدكتور يعقوب صرُّوف — الشيخ ناصيف في عمامتهِ وابازمهِ ، جالساً على « طراحتهِ » يدخن نَيلوتهُ الطويل وهو يكتب والدكتور يعقوب في بزتهِ الافرنجية ، مكشوف الرأس ولا غليون حتى ولا سيجة يبدو — يستوقفني الصورة الاولى وان كان قلبي وعقلي يتجهان حبًّا واحترامًا الى الثانية . نعم ان المسئلة ذوقية لا اجتماعية

ولكني اسأل القارئ ان يتصور مؤسس مصر الحديثة ، محمد علي الكبير ، بعمامتهِ البيضاء الواقرة ، او في طربوشهِ المغربي ، وهو متربع في ديوانهِ ، او ممتطٍ صهوة حصانهِ ، ثم يتصور احد حكام هذا الشرق الادنى اليوم الذين يقيدون انفسهم بسيمة اذرع من الجوخ الانكليزي او الافرنسي ، و يجلسون في السيارة وهم يدخنون السيكارة — يتصور الصورتين و يسأل نفسهُ ايتهما ادعى الى الوقار والاعجاب . اية الصورتين انعم واجمل وأجل ؟ هذا في الظاهر ، في النيافة . ولا أثير في قلب القارئ الاشجان فاسألهُ ان يقابل بين مؤسس اكبر النهضات الشرقية العربية الحديثة ، صاحب الطربوش والسروال و بين حكام هذا الزمان الدستوريين

ليست اظهر المظاهر اذن من اركان النهضة الشرقية ، ولا هي برهان على النهضة الثابتة التي فيها رقي حقيقي ومعنوي

وما هي يا ترى هذه النهضة ؟ النهضة في القاموس الطاقة والقوة ، او هي الطاقة على النهوض مما نحن فيه الى شيء ارفع منهُ . ولكن روح الزمان اكسب اللفظة معنى آخر او ظلاً من المعنى جديداً . اني افهم بالنهضة الثورة على القديم الذي امسى عقيماً ، والقديم الذي صار بالياً ، والقديم الذي كان منذ البدء فاسداً ، ان كان في الاحكام ، او في العقائد ، او في الاداب ، او في العلوم . ولهذه الثورة مظاهر يراها كل الناس فهي اذن اظهرها ، ولكنها ليست باهمها . ولها مظاهر لا يراها الا فريق من الناس ، وقد لا يراها غير الخاصة من ذوي الالباب ، وهي في نظري اهمها

اما تلك التي يراها كل انسان ويشارك اليوم فيها ، فيخسر او يكسب في سبيلها ، انما هي هذه الاحكام الدستورية التي حلت محل الحكم التركي القديم . ولكنها في مظاهرها مدعاة لغير الاحترام . فلو عاد الوالي الذي كان يحكم بغداد منذ خمسين سنة ، ورأى الملك فيصلاً يلعب « التانس » واصدقاءهُ الانكليز ، لمزّ رأسهُ مبتسماً وهو ينسل ، كي لا يخجل صاحب الجلالة ، بين النبيل

ولو عاد الخديوي اسماعيل ورأى هذا البرلمان المصري الباهر وهؤلاء الافاضل المكبلين بالثوب الافرنجي الرسمي — اسود على ابيض — وبينهم لطخ من العمائم ، لرفض ان يجلس على العرش المعد لهُ — ايها السادة المسودين اني افضل ان اكون واحداً منكم على ان اقيد بارادتكم كلها

ولو تجسد ثانية احد ولاة الشام وشاهد ما حلّ بدمشق في السنة الاخيرة لرفع يديهِ الى السماء شاكراً شاكياً معاً . — وما هي مظالمنا يا ربي اذا قيست باعمال المتمدنين؟

ولو أتيح للامير بشير الكبير ان يزور اليوم سراي بيت الدين فيرى من على هضبته الجمهورية اللبنانية لضرب الارض بطيلونهِ ، وعاد دامع العين الى قبرهِ

حكومات جمهورية ديمقراطية ! واحكام برلمانية انتدابية ! هي اظهر مظاهر النهضة الشرقية العربية اليوم ، واقلها اهمية ، اذ لا رقي فيها سياسياً او اخلاقياً ، ولا قوة حقيقية او معنوية . لهل تظنها في هذا الشكل الصناعي — وقل المدرسي التمريني — تدوم طويلاً . لا ورب القوة ! فاما ان يقوم عليها حاكم من اهل البلاد — حاكم بامرهِ وسيفهِ — مثل مصطفى كمال او ابن سعود ، واما ان ينهض الشعب بامرهِ على اولئك الذين يرومون

استعمار الشرق الادنى بواسطتها ، فيصبون على دورها البنزين و يوكلون بها النار

واية مهزلة ، بل اية مأساة اشد من هذه التي يشترك فيها الوطني المزيَّف ، والاجنبي المضيَّف ؟ هل تريدون حكومة دستورية ، وملكاً مقيداً ، و برلمانا ؟ ها كم ما تريدون . وكلهم مقيدون ، الملك والبرلمان والدستور . كلهم مقيدون من اجلكم ايها الشرقيين ، في ذي هبة السياسة الاوربية الحرة للشرق الطالب الحرية والاستقلال . في ذي التحلة التي يعللون بها اليوم هذا الشرق القديم الجديد

ان هنالك مظهراً آخر يستحق فعل التفضيل وهو المدارس . نعم ان تعدُّد المدارس في مصر وسورية ، وفي العراق ايضاً ، من اظهر مظاهر النهضة الشرقية التي تبدو للعيان فيراها كل انسان . وليست هي باهم من الدستور والبرلمان . ليست هي عنواناً — عنواناً في الاقل — للتهذيب الاخلاقي القومي ، والتهذيب العلمي العالي

والسبب في ذلك هو ان اكثر هذه المدارس لا تزال مقيدة اما ببرنامج ديني واما ببرنامج اجنبي . او ان اكثرها لا يزال بيد رجال الدين الوطنيين منهم والاجانب . وهناك عدد ليس بقليل من المدارس الاجنبية التي لا يرى مديروها في تاريخ العالم كلهِ ما هو اهم واعظم وامجد من تاريخ بلادهم . — شرلمان وركارودس قلب الاسد ، وبطرس الاكبر هم هم ابطال التاريخ . بل ابطال العالم : — قل لي يا ولد كم كان عدد ابناء شرلمان ؟ وايهم كان يفضل شرب الجعة على شرب النبيذ ؟ — وقل لي ما اسم البطل الغوثي الذي كسر الاتاء الروماني ؟ ثرتاجودسك . — حمار . اسمهُ ثرسنجاتوريكس . انهُ والله لعلم جميل . ولا اظن احداً من طلبة هذه المدارس يعرف اسم طارق بن زياد

ليست الاحكام البرلمانية اذن ، ولا تعدد المدارس باهم مظاهر النهضة الشرقية ، وان كانت من اظهرها . ولعمري ان مدرسة مثل مدرسة المعلم بطرس البستاني في زمانهِ لاصلح وانفع من هذه التي يتخرج الشبان فيها متفرنجين ، لا يعرفون لغتهم ، ولا تاريخ بلادهم ، وقلما يحترمون غير الاجنبي

ان مظاهر النهضة الشرقية التي لا تستحق افعل التفضيل بالمعنى الذي افصحت عنهُ ، ولكنها من الاهمية في اعلى مكان ، انما هي المظاهر العلمية ، والادبية ، والاصلاحية التي تشتمل مصابيحها على الدوام في قلوب افراد من الناس ، في قلوب نوابغ الامة . هي المصابيح ، مصابيح العلم والادب ، والشعر والفنون ، ترسل اشعتها الفضية والذهبية الى قلب المجتمع الانساني ، الى مصدر الحياة فيهِ ، فتنير تدريجاً اظلم طبقاتهِ ، واقصى زواياهُ الدامسة

اجل ان كتاباً واحداً ، او مقالاً واحداً ، او فكراً واحداً فيه حقيقة جديدة مفيدة للناس ، ترسلهُ حرًّا في الناس لاشد فعلاً ، واثبت نفعاً ، واعم خيراً ، من كل ما تجبي به الحكومات والمدارس المقيدة

عفواً ايها القارئ . قد تسرعت ، فاستثنيت ، فقلت « المقيدة » ! وما الحكومات على انواعها غير قيود للناس ، وآلات لجمع الضرائب ، واقامة الحروب . اجل . وما فضل الحكومات ، مقيدة كانت او مطلقة ، في تاريخ الامم ، او بالحري في تاريخ الرقي والعمران؟ هل سمعت في زمانك او قرأت ان حكومة من حكومات العالم اكتشفت اكتشافاً ، او اخترعت اختراعاً ، او اقدمت على اصلاح اجتماعي او سياسي من تلقاء نفسها ؟ اخشى ان تخرجني الحكومات عن الموضوع اذا سألت سؤالاً آخر

اعود اذن الى النهضة الشرقية العربية فاقول ان الفضل الاكبر فيها هو للعالم الذي يخدم العلم من اجل الحقيقة اولاً وآخراً ، وللاديب الذي يرفع ادبهُ على ثلاثة اركان في الذوق السليم ، والقصد القويم ، والخلق الكريم ، وللمصلح الذي يفادي بكل ما هو عزيز لديه ، حتى بحياته ، في سبيل عقيدة يتيقن ان فيها اكبر كل الخير للناس

وان اجل ما في هذه النهضة ، واثبت ما فيها ، هو النفر من العلماء والادباء ، والمصلحين الذين لا يتقيدون بغير الحقيقة ، والفن ، والضمير . ولا شك ان عددهم آخذ بالازدياد . ولا شك ان من يقرأونهم ، و يقبلون عليهم ، و يناقلون اقوالهم وافكارهم ، يُعدون بالالوف اليوم وقد كانوا منذ خمسين سنة يعدون بالمآت

ومن نتائج هذا الازدياد في عدد الذين يقبلون على الادب الجديد و يطالعون الكتب العلمية والاصلاحية ، هو اننا اصبحنا اكثر علماً واكثر احتراماً للعلم من اجدادنا ، واكثر حرية كتابةً وقولاً ، واكثر تساهلاً في المعتقدات ، واشد ميلاً الى التآلف والتضامن في سبيل الوطن

اقول اكثر تساهلاً بالرغم عن ضجة في مصر احدثها كتاب في النقد الادبي لاديب من المجددين وكتاب في الاصلاح الديني لعالم من العلماء المصلحين . فلو ظهر هذان الكتابان منذ اربعين سنة لكان السجن او الاغتيال جزاء الشيخ عبد الرازق والاستاذ طه حسين الى الامام !

اننا لفي تقدم . وان الفضل الاكبر في ذلك عائد الى مجلتي المقتطف والهلال ، والى اولئك الادباء المجددين ، والمصلحين الصادقين ، الذين يبذون القديم — القديم العقيم ،

والقديم البالي ، والقديم الذي كان منذ البدء فاسداً — يبدلونهُ و يقولون ، بلغة المعري
ابي العلاء ، عليهِ بهلة المباهلين لبناني امين الريحاني

—o:o—

٢ — رأي وليم كانسليس

تلبيةً لاقتراح المقتطف العزيز ابسط رأيي في « ما هي اظهر مظاهر النهضة الشرقية الحديثة » وانما اقدم على ذلك معترفاً بانني لم اوفهِ حقهُ من الدرس . محتمياً لو ان البعض من مفكري الشرقيين الذين وقفوا جانباً من وقتهم لدرسهِ درساً وافياً دقيقاً ينبرون لهُ و يجبطون في معالجتهِ فهم اقدر على الخوض فيهِ واولى

انا ارى ان اظهر مظاهر النهضة الشرقية الحديثة تنبُّه « الضمير الفردي ، اي معرفة الفرد حقوقه »

كان بدء الانحطاط في الامم الشرقية التي تتكلم العربية في آخر ايام الدولة العباسية في بغداد . يوم تغلب العنصر التركي في البلاد الاسلامية وظلت الحال على تأخر مستمر حتى ظهور النهضة الفكرية في اواسط القرن التاسع عشر . فلاح فجر العرفان واخذ نورهُ ينتشر بفضل المدارس الوطنية والاجنبية . وكثر اختلاط ابناء الشرق بالامم الغربية فنجم عن ذلك تنبُّه شعور الامة — ولاسيما افرادها المتعلمين — لمعرفة حقوق الانسان والنفرة من الاستسلام السلبي والعبودية

ليس في العالم الروحاني قوة اعظم من قوة الطموح . وهي هي تلك القوة التي تجلت من قيودها واخذت تعمل في نفوس الشرقيين فعلها عند ما استفاقوا من غفلتهم فنظروا الى شقاء حالهم وانحطاطها ثم الى ما يمكن الوصول اليهِ في المستقبل . وكان تأثير تلك اليقظة على اشدهِ في مصر نظراً الى حالتها السياسية وما كان لها من الحرية النسبية اذ كانت سائر البلاد الشرقية كسورية وفلسطين والعراق لا تزال راسفة في اغلال الحكم المطلق غير طليقة الفكر والقول . على ان البذرة الطيبة التي بذرها العلم في نفوس الامة ، بواسطة المجلات والصحف . ما فتئت تمتد وتعمل فعلها في تربة تلك النفوس . ان بذرة مباركة كهذه تلقيها يد الله في نفوس البشر لا تمكث حيناً من الدهر لكنها لن تموت . ومتى انيح لها الظهور ظهرت و يرافق ظهورها في بعض الاحايين تهجر كتهجر البراكين

وهنا يبادر الى الذهن سؤال: هل النهضة في الشرق مستوفية الشروط ؟ فاجيب كلا ان من مزايا الثورات كلها، ولاسيما في باديء امرها ، تغلُّب النظريات على العمليات.

والخيال البعيد عن المعقول القريب وحالة النهضة الشرقية كانت ولا تزال كذلك . فقد شغلت اكثر الشرقيين بالامور النظرية عن العملية، وبفلسفة المبادئ عن وسائل التنفيذ. اي ان الكلام كان كثيراً والانتاج قليلاً. وهذا شأن الامة الناهضة في طفوليتها وهذا ايضاً مما يحمل الكثيرين على الظن في ان العلم — ولا تنكر حسناته — يكون مضرًّا في بعض الاحيان . كالدواء الذي يكون شافياً وساماً حسب استعماله من يستعمل له . ولعل هذا النوع من الضرر لاحق بسورية اليوم فان فيها فحطاً عملياً لقلة الايدي العاملة . لان ابناء العمال والصناع والفلاحين بعد ان تعلموا الشيء القليل — وهذا يسهل تناوله في بلاد رخيصة المعاش — توهموا ان حرف آبائهم امست لا تليق بهم او انهم صاروا ارفع منها فنبذوها متطلبين في الحياة ما هو على زعمهم اكثر ملاءمة للدرجة العلية التي ادركوها . وقد فاتهم ان في الامم الراقية كاميركا وانكلترا وفرنسا والمانيا وبلجكا واسوج وسويسرا وسواها يندر وجود عامل او صانع او فلاح لا يفوقهم علماً وثقافةً . وانهُ ليس في الامكان ان تكون الوظائف السياسية والمهن العالية كالطب والمحاماة نصيب كل فرد من افراد الامة

وهنالك خطر آخر على النهضة الشرقية ألا وهو المغالاة في الوطنية التي من شأنها تأخير سير النجاح وعرقلة النمو الطبيعي . فهي من هذا القبيل لا تختلف عن الغلو في الدين الذي به ينقلب الدين من قوى الى هياج عصبي . او الى نوع من انواع الجنون المعروفة عند الاختصاصيين

وصفوة القول ان النهضة الشرقية سائرة سيراً حسناً لا ينقصها الا شيء واحد يعبر عنهُ الفرنجة بقولهم Sens pratique اي الفكرة العملية او الحس العملي . فالنظريات المجردة وان تكن مفيدة ليست بكافية لانهاض الامة بل يجب ان يرافقها العمل والانتاج. واني ارى القطر المصري اقرب الامم الشرقية الى مجاراة الغرب لان علة الخيال العقيم والخمول قد خفت وطأتها فيهِ وهي على اهبة الجلاء عن ذلك القطر العزيز. اما في سورية فان العلة كبرى يخشى ان يُطيل استحكامها هناك فائدة النهضة الفكرية و يجعلها عقيمة

متى ادرك الشرقيون معنى الاستقلال الحقيقي وهو الاستغناء عن الغير بالعلم والصناعة والتجارة والفلاحة — الا في المبادلة المألوفة المتعارفة — متى ادركوا هذا وحولوا قوى نهضتهم الفكرية نحو تلك الغاية ، عند ذلك يصح ان نعتبرها نهضة فعلية وفعالة وهم بأذن الله فاعلون

نيويورك وليم كاتسفليس